(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧))

[هود : ٢٥- ٢٧] .

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ**) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عَبَدة الأصنام .

- **قال ابن كثير** : وكان قوم نوح يعبدون الأصنام: فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.
- بدأ تعالى بقصص الأنبياء في السورة تسلية للنبي ﷺ وبيان أن الشدة التي لاقاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل) وفيها أيضاً تهديداً للمشركين.
- وبدأ بنوح لأنه أول رسول أرسل إلى أهل الأرض حينما انتشر الشرك بينهم، ويسمى نوح (آدم الأصغر) لأن البشرية كلها بعده من ذريته كما قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ).
- ونوح هو أحد أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم في موضعين في كتابه:

الموضع الأول / في سورة الأحزاب.

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً).

الموضع الثاني / في سورة الشورى.

قال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ).

ونوح أول الرسل.

لقوله (فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض).

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).

- قال ابن كثير: وقد كان بين آدم إلى زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام. قاله ابن عباس.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين (ودًا وسواعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسراً) فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى -وله الحمد والمنة -رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

(**إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**) أي: ظاهر النّذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله .

والإنذار : الإعلام المقرون بتخويف .

- ذكر الإنذار هنا دون البشارة مع أن الرسل جاءوا بالنذارة والبشارة :

قيل : من باب الاكتفاء .

كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) أي : والبرد .

وعلى أحد الأقوال في قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) أي : وإن لم تنفع .

ويحتمل أنه ذكر النذارة لأنهم كانوا في غاية المكابرة والإعراض ، فهو ينذرهم ، كما قال ﷺ (أنا النذير العريان) .
واقتصر على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله- تعالى- إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة.

- **قال الرازي** : قال بعضهم : المراد من النذير كونه مهدداً للعصاة بالعقاب ، ومن المبين كونه مبيناً ما أعد الله للمطيعين من الثواب ، والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الإنذار على الطريق الأكمل والبيان الأقوى الأظهر .

(**أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ**) وهذه دعوة جميع الرسل .

- وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل، وأنها دعوة الرسل جميعاً، وأول ما يبدا به.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).
وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).
وقال ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ الأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ، .. وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ).
(الأنبياء أولاد عَلاّت) أولاد العلات: هم الأخوة للأب من أمهات شتى.
معنى الحديث: أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف.

(**إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**) أي : إن استمررتم على ما أنتم عليه عَذَّبكم الله عذابا أليما مُوجعًا شاقًا في الدار الآخرة.

وهي جملة تعليلية، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم.
أي : إني أحذركم من عبادة غير الله، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم الى وقوع العذاب الأليم عليكم، وما حملني على هذا التحذير الواضح إلا خوفي عليكم، وشفقتي بكم، فأنا منكم وأنتم مني بمقتضى القرابة والنسب.

(**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ**) أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم.

- قيل سُمُّوا (ملأً) لأنهم يملؤون صدورَ المجالسِ بقامتِهم الوافيةِ، أو يملؤونَ صدورَ الناظرِ لأُبَّهَتِهِمْ وَجَمَالِهِمْ، أو أنهم يَتَمَالَؤُونَ على العقدِ والحلِّ فيتفقونَ عليه.

(**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا**) أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا ؟
أي : ما نَراكَ يا نوح إلا بشراً مثلنا، أي: إلا إنساناً مثلنا، ليست فيك مزية تجعلك مختصاً بالنبوة دوننا .
فهم- لجهلهم وغبائهم- توهموا أن النبوة لا تجامع البشرية، مع أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم، حتى تتم فائدة التفاهم معه، والاقتداء به في أخلاقه وسلوكه .

- **قال الشنقيطي** : زعموا أن البشرية مانعة من الرسالة ، وهي أكثر ما ابتلاهم به ، وأكبر الموانع من إيمانهم بالرسل .

فقال تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا).
وقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا).
وَقَوْلُهُ (فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا).
وقال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ).
وقال تعالى (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا

تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).

وشُبْهَتُهُمْ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ رَدَّهَا اللَّهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا).

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) أَيْ: لَا مَلَائِكَةً.

- **قال القرطبي**: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقاربته وما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.
- والبشر الإنسان ، سمي بشراً لأن بشرته بادية لا يسترها شعر ولا وبر .

هذه الشبهة الأولى للكفار : كون الرسل بشراً .

(**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**) هذه الشبهة الثانية .

أي : ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك .

كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء (قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُون) .

- والأراذل جمع أرذل ، والرذالة التفاهة والدناءة وسقوط القيمة .
- **قال الرازي** : هذا جهل منهم، لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية، بل الفقر أهون على الدين من الغنى، بل نقول: الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعناً في النبوة والرسالة.
- وقد أجرى الله العادة في عباده أن أول المسارعين لطاعة رسله هم الفقراء والضعفاء، وهم أكثر أهل الجنة، وأن أول ما يبادر إلى التكذيب هم الأشراف والرؤساء، لأنهم يحبون الرئاسة والشرف، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين، وهم أكثر أهل النار .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم (بَادِيَ الرَّأْيِ) ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زَكاء وذكاء ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عَيِيّ أو غبي . والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

(**وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**) يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا .

الفضل: الزيادة في الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به الإنسان عن غيره.

والمراد هنا: آثاره التي تدل عليه.

أي : أنت يا نوح لست إلا بشرا مثلنا، وأتباعك هم أحقرنا شأنا، وما نرى لك ولمتبعيك شيئاً من الزيادة علينا لا في العقل ولا في غيره، بل إننا لنعتقد أنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق، لأن الحق في نظرنا هو في عبادة هذه الأصنام التي عبدها من قبلنا آباؤنا.

(**بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**) أي : مخبرين بخلاف الواقع .

والكذب : الإخبار بخلاف الواقع .

الفوائد :

١- إثبات رسالة نوح .

٢- عظمة الله لقوله (ولقد أرسلنا) فالجمع للتعظيم .

٣-أن كل نبي يرسل إلى قومه خاصة إلا نبينا ﷺ فإنه أرسل لجميع الناس .

٤-أن مهمة الرسل التبشير والإنذار .

٥-وجوب عبادة الله تعالى .

٦- أن دعوة جميع الرسل هو عبادة الله وحده وترك الشرك .

٧-عظم المال والرئاسة ، حيث إنها من أسباب رد الحق .

٨- أن أهل الترف دائماً يعادون الرسل .

٩-من عادة الترف احتقار الضعفاء .

١٠-أن أتباع الرسل هم ضعفاء الناس .

(**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)**) .

[٢٨- ٣١] .

(**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي**) أي: على يقين وأمر جلي .

(**وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ**) أي : ومنحني بفضله وإحسانه النبوة التي هي طريق الرحمة لمن آمن بها، واتبع من اختاره الله لها. فالمراد بالرحمة هنا النبوة .

(**فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**) أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها .

(**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**) الاستفهام للإنكار والنفي.

أي: إذا كانت الهداية إلى الخير التي جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلائها ، فهل أستطيع أنا وأتباعي أن نجبركم إجباراً ، ونقسركم قسراً على الإيمان بي، وعلى التصديق بنبوتي، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها.

كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار.

(**وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً**) يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل .

لأن طلبي هذا قد يجعلكم تتوهمون أني محب للمال .

(**إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ**) وحده، فهو الذي يثيبني على دعوتي إلى عبادتكم له، وفي هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله تعالى مالاً ، وإنما يسأله ثواباً ، إذ ثواب الله يسمى أجرا، لأنه جزاء على العمل الصالح.

(**وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ**) كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم .

كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصاً، فأنزل الله تعالى (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) .

(**إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ**) أي: لن أطردهم عن مجلسي أبداً ، لأنهم قد آمنوا بي، ولأن مصيرهم إلى الله تعالى، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التي تدل على صدق إيمانهم، وشدة إخلاصهم.

(**وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**) أي : ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم، وتظنون أنكم خير منهم .

- وفي هذا أنه على الداعية أن يكون مخلصاً ناصحاً في دعوته لكي ينتفع الناس بدعوته.

ومن النصح ألا يأخذ على دعوته وتعليمه مالاً أو عوضاً.

وهذا هُوَ شَأْنُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ.

قال تعالى عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

وَقَوْلِهِ فِيهِ أَيْضًا فِي آخِرِ «سُورَةِ ص» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ).

وَقَوْلِهِ فِي «الطُّورِ»، وَ «الْقَلَمِ» (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ).

وَقَوْلِهِ فِي «الْفُرْقَانِ» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا).

وَقَوْلِهِ فِي «الْأَنْعَامِ» (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ).

وَقَوْلِهِ عَنْ هُودٍ فِي «سُورَةِ هُودٍ» (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي).

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّعَرَاءِ» عَنْ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا).

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَجَّانًا مِنْ غَيْرِ أَخْذِ عِوَضٍ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا عَلَى تَعْلِيمِ الْعَقَائِدِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

(**وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ**) أي : من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم.

(**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**) أفلا تتعظون وتعتبرون .

(**وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ**) أخبر بتذلله وتواضعه لله عزّ وجلّ ، وأنه لا يدّعي ما ليس له من خزائن الله ؛ وهي إنعامه على من يشاء من عباده .

- **قال الشوكاني** : والمراد بخزائن الله : خزائن رزقه .

(**وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**) أي: ولا أدّعي أني أعلم بغيب الله، بل لم أقل لكم إلا أني نذير مبين، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم.

- وقد بيّن تعالى أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله .

كما قال تعالى (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

وأعظم الخلق: الملائكة ، والرسل لا يعلمون الغيب.

فالملائكة لما قال لهم الله (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ) أجابوا بأن قالوا (سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا).

والرسل عليهم الصلاة – مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة – يقولون: إنهم لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله.

فهذا سيدهم وخاتمهم قد أمره ربه أن يقول (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ).

وأمره أيضاً في سورة الأعراف أن يقول (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ).

وهذا نوح عليه السلام ذكر الله عنه في سورة هود أنه قال لقومه (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً).

وهذا نبي الله إبراهيم كما قال الله (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) ولم يدرِ أن الذين ينضج لهم عجله ملائكة كرام لا يأكلون.

وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) ومع هذا فولده يوسف كان في مصر ، وما بينه وبينه ثمان مراحل ، ولا يعلم عن أمره شيئاً.

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام، الذي أعطاه الله الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وما كان يدر يعن قصة بلقيس وجماعتها ، حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين ، وكان قد خرج بغير إذن ، وكان نبي الله سليمان يتوعده ويتهدده على الخروج بغير إذن كما قص الله في سورة النمل (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ...) حتى قال له (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ...).

(**وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**) وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا أي لا أدعي أني من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ، ومنحني ربي النبوة .

قال تعالى (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

(**وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ**) أي : إني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم .

(**لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا**) بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل ، ولا يضرّهم احتقاركم لهم شيئاً .

(**اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ**) من الإيمان به ، والإخلاص له ، فمجازيهم على ذلك ، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء .

(**إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**) أي : إن طردتهم ، أو احتقرتهم ، أو ادعيت أني أعلم الغيب .

الفوائد :

١-حرص نوح على هداية قومه .

٢- أن الأنبياء وغيرهم من باب أولى ليس بيدهم هداية أحد .

٣- أن الأنبياء لا يأخذون على دعوتهم أجراً إلا من الله .

٤- وجوب الإخلاص في الدعوة إلى الله .

٥- أن أخذ الداعية أجراً على دعوته يؤدي إلى قلة نفعها .

٦- أن أكثر أتباع الأنبياء الفقراء .

٧- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب .

٨- أن النبي بشر كغيره إلا أن الله اصطفاه بالوحي .

(قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ (٣٥)) .

[هود : ٣٢- ٣٥] .

(قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك .

والجدال: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة

- **قال ابن الجوزي** : قال الزجاج : الجدال : هو المبالغة في الخصومة والمناظرة ، وهو مأخوذ من الجَدْل ، وهو شدة الفتل ، ويقال للصقر : أجدل ، لأنه من أشد الطير.
- **قال القرطبي** : والجَدَل في الدين محمود ؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ، فمن قَبِله أنجح وأفلح ، ومن ردّه خاب وخَسِر.

وأما الجِدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل في صورة الحقّ فمذموم ، وصاحبه في الدّارين ملوم.

- **قال أبو حيان** : وإنما كثرت مجادلته لهم لأنه أقام فيهم ما أخبر الله به ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهو كل وقت يدعوهم إلى الله وهم يجيبونه بعبادتهم أصنامهم.
- بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه:

أولاً: اتهموه بالجنون.

قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ).

ثانياً: اتهموه بكثرة الجدال.

قال تعالى عنهم (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

ثالثاً: اتهموه بالضلال.

قال تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين).

رابعاً: توعدوه بالرجم.

قال تعالى عنهم (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ).

خامساً: التهكم والسخرية.

قال تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

(فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا) أي: من النقمة والعذاب .

(إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) في كلامك وتهديدك .

(قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاء) يعني قال نوح لقومه حين استعجلوه بإنزال العذاب إن ذلك ليس إليّ إنما هو إلى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء إن أراد إنزال العذاب بكم .

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) يعني وما أنتم بفائتين إن أراد الله نزول العذاب بكم .

(**وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**) أي: أي شيء يُجدِي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم .

- والنصح : قيام الناصح بما يجب عليه .

وفي هذا فضل النصيحة

والنصيحة شرعاً :

قيل : هي كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمنصوح له .

وقيل : قيام العبد بما لغيره من الحقوق ، وهذا أصوب .

ولها فضائل :

أولاً: أنها مهمة الرسل.

قال تعالى إخباراً عن نوح (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم).

ثانياً: أن منزلتها عظيمة.

كما في حديث (الدين النصيحة).

ثالثاً: أنها من علامات كمال الإيمان.

كما قال ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

رابعاً: أنها من حقوق المسلم على أخيه المسلم.

قال ﷺ (للمؤمن على المؤمن ست خصال: ... وينصح له إذا غاب أو شهد).

سئل ابن المبارك: أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله.

وقال الفضيل: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير.

وقال أيضاً: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

قال أبو بكر المزني: ما فاق أبو بكر أصحاب رسول الله بصوم ولا بصلاة، ولكن بشيء كان في قلبه، قال ابن علية: الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة في خلقه ".

وقال أبو الدرداء: إن شئتم لأنصحن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحبّبون الله تعالى إلى عباده ويعملون في الأرض نصحاً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قالت له فاطمة بنت قيس : قد خطبني أبو جهم ومعاوية ، فقال لها : أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له ، فبين النبي ﷺ حال الخاطبين للمرأة ، فإن النصح في الدين أعظم من النصح في الدنيا ، فإذا كان النبي ﷺ نصح المرأة في دنياها فالنصيحة في الدين أعظم .

وللنصيحة آداباً :

أولاً : الإخلاص لله عز وجل .

فلابد أن يقصد بنصحه وجه الله تبارك وتعالى كما في حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) .

ثانياً : ألا يقصد التشهير .

ثالثاً : أن يكون النصح سراً .

قال الشافعي : من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه .

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله : وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً .

قال بعضهم : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه .

قال الشاعر :

تغمدني بنصحك في انفرادي وجنّبي النصيحةَ في الجماعة

فإن النصحَ بين الناسِ نوعٌ من التوبيخِ لا أرضى استماعه

رابعاً : أن يكون النصح بلطف وأدب ورفق ولا يثقل على الناصح ولا يكثر عليه .

كما جاء في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه) .

(**هُوَ رَبُّكُمْ**) أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر .

والرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

- **قال الخازن** : يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه .

(**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) أي : وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**) أي : اختلقه وافتعله من عند نفسه .

- **قال الخازن** : أي اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود إلى الوحي الذي جاءهم به .

قيل : هذه الآية في محمد ﷺ وقومه .

وقيل : هي في نوح .

وهذا الصواب .

- **قال القرطبي** : وقيل : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر .

لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛ فالخطاب منهم ولهم .

- **قال الخازن** : وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام .

وقال مقاتل (أم يقولون) يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمداً ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى (وأوحي إلى نوح ...) .

- **وقال أبو حيان** : قيل : هذه الآية اعترضت في قصة نوح ، والإخبار فيها عن قريش.

يقولون ذلك لرسول الله ﷺ أي : افترى القرآن، وافترى هذا الحديث عن نوح وقومه، ولو صح ذلك بسند صحيح لوقف عنده، ولكن الظاهر أن الضمير في يقولون عائد على قوم نوح ، أي : بل أيقولون افترى ما أخبرهم به من دين الله وعقاب من أعرض عنه ، فقال عليه السلام قل : إن افتريته فعليّ إثم إجرامي .

وعلى قول من قال : إنها في شأن مشركي مكة : يكون المعنى ، لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن، قل لهم: إن كنت قد افتريته– على سبيل الفرض– فعلي وحدي تقع عقوبة إجرامي وافترائي الكذب، وأنا بريء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب.

(**قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ**) أي : اختلقته وافتعلته ، يعني الوحي والرسالة.

(**فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**) أي: فإثم ذلك علي .

قال القرطبي : الإجرام مصدر أجرم ؛ وهو اقتراف السَّيئة.

(**وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ**) مما تقترفونه من منكرات، وما تكتسبونه من ذنوب.

الفوائد :

١- حرص نوح الشديد على هداية قومه ، بمجادلتهم وخطابهم المستمر .

٢-شدة كفر قوم نوح .

٣- أن الكفار دائماً يستعجلون العذاب .

٤- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ، فلا يعلمون متى نزول العذاب .

٥- لا أحد يستطيع أن يفلت من الله .

٦- نصيحة نوح لقومه .

٧- أن من لم يرد الله هدايته فلن يهتدي .

٨- أن المرجع إلى الله .

(**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)**) .

[هود : ٣٦ – ٣٧] .

(**وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**) أي : بعد أن لج قوم نوح في طغيانهم، وصموا آذانهم عن سماع دعوته.. أوحى الله تعالى إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين، فإنه لم يبق في قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن، وبعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً يدعوهم إلى الدخول في الدين الحق، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً .

(**فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**) تسلية له عليه السلام عما أصابه منهم من أذى.

والابتئاس: الحزن. يقال: ابتأس فلان بالأمر، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه، والمبتئس:

الكاره الحزين في استكانة.

أي : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم، وتماديهم في سفاهاتهم وطغيانهم، فقد آن الأوان للانتقام منهم.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (بما كانوا يفعلون) هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحي إليه هذا.

قال الله تعالى حكاية عنه (فلم يزدهم دعائي إلاّ فِراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) .

- **قال ابن الجوزي:** قال المفسرون: لما أوحي إليه هذا، استجاز الدعاء عليهم، فقال (لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً).
- وقد دعا نوح على قومه ونادى ربه:

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً).

وقال تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ).

- فإن قيل لماذا دعا نوح على قومه؟

دعا نوح على قومين لأمرين:

الأمر الأول: أن الله أخبره أنه لن يؤمن من قومك إلا القليل.

كما قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ).

الأمر الثاني: أن هؤلاء القوم سيضلون غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً).

- إشكال وجوابه :

من المعلوم أنه لا أحد لا يعلم الغيب إلا الله ، فكيف قال نوح (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ....) .

والجواب : أن ذلك كان بوحي من الله ، ومما يدل على أنه وحي قوله تعالى (.. لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) .

(**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ**) يعني: السفينة .

والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح عليه السلام .

وهذه السفينة قال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) .

(**بِأَعْيُنِنَا**) أي: بمرأى منا وتحت رعايتنا .

(**وَوَحْيِنَا**) أي : بتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا.

أي: وتعليمنا لك ماذا تصنعه .

(**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**) يعني بالطوفان .

والمعنى ولا تخاطبني في إمهال الكفار فإني قد حكمت بإغراقهم .

وقيل : ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة؛ فإنهما هالكان مع القوم .

- **قال الشنقيطي** : وهذا الوجه بعيد، لأن نوحاً قد ألح في دعائه لربه أن يهلكهم، فالصحيح أن المراد لا تخاطبني في تعجيل العذاب والإهلاك لقومك ، فإنه قد كتب وحان.

- **قال الرازي** : ففيه وجوه :

الأول : يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم ، فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك .

الثاني : (وَلاَ تخاطبني) في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا، فإني لما قضيت إنزال ذلك العذاب في وقت معين كان.

الثالث : المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان .

(**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ**) بيان لامتثال نوح لأمر ربه .

(**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ**) السخرية : الاستهزاء والاستخفاف ، أي : استهزؤا منه وضحكوا عليه ..

ومن سخريتهم :

أ- أنهم يقولون له : كيف تدعي النبوة ثم تصير نجاراً بعد ذلك ؟

ب- أنهم يرونه يصنع السفينة في أرض يابسة ، فيسألونه ماذا يريد بها ، فأخبرهم أنه يمشي بها على الماء ، فيَهزون رؤوسهم ، لأنهم لم يعرفوا ذلك ، لأنها أول سفينة صنعت .

(**قَالَ**) لهم نوح .

(**إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**) أي : قال نوح لهم: إن تسخروا مني ومن أتباعي اليوم لصنعنا السفينة، وتستجهلوا منا هذا العمل، فإنا سنسخر منكم في الوقت القريب سخرية محققة في مقابل سخريتكم الباطلة.

- والسخرية والاستهزاء سنة ماضية من قِبل أعداء الإسلام لأهله، فقد سخر واستهزأ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكُفَّارَ اسْتَهْزَءُوا بِرُسُلٍ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَنَّهُمْ حَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُفَصِّلْ هُنَا كَيْفِيَّةَ اسْتِهْزَائِهِمْ، وَلَا كَيْفِيَّةَ الْعَذَابِ الَّذِي أُهْلِكُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُ فَصَّلَ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، فِي ذِكْرِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، وَهُودٍ وَقَوْمِهِ، وَصَالِحٍ وَقَوْمِهِ، وَلُوطٍ وَقَوْمِهِ، وَشُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

فَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِنُوحٍ قَوْلُهُمْ لَهُ (بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا صِرْتَ نَجَّارًا).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ هُودٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ الْآيَةَ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ..)، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِصَالِحٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ (يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

وَقَوْلُهُمْ (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ..) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِلُوطٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ...) وَقَوْلُهُمْ لَهُ أَيْضًا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِشُعَيْبٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).

(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) وعيد شديد، وتهديد أكيد .

(**مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**) أي: يهنه في الدنيا .

(**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ**) أي: دائم مستمر أبداً .

الفوائد :

١- حكمة الله في قلة إيمان من آمن مع نوح .

٢- أن نوحاً قام بما يجب عليه من الدعوة والنصح ، لكن حكمة الله فوق كل اعتبار .

٣- تعليم الله لنبيه ورعايته له .

٤- أن الله إذا حكم بشيء فإنه لا يراجع في ذلك .

٥- أن السخرية والاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم سنة ماضية .

٦-تهديد نوح لهؤلاء الكفار .

٧- ثقة نوح بوعد الله .

(حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)) .

[هود : ٤٠] .

(**حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا**) المراد بالأمر ، وقت حلول وقت نزول العذاب بهم، فهو مفرد الأمور، أي: حتى إذا حل بهم وقت عذابنا.. قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين.

(**وَفارَ التَّنُّورُ**) يقال : فار يفور إذا غلا غلياناً شديداً .

وفي المراد بالتنور أقوال للعلماء :

فقيل : إن الكلام على سبيل المجاز، والمراد بقوله سبحانه فارَ التَّنُّورُ التمثيل بحضور العذاب، كقولهم، حمى الوطيس، إذا اشتد القتال .

وقيل : أنه تنور الخبز ، وذلك أن الله تعالى جعله له علامة ، عندما يفور يغلم أن الإهلاك حاصل بعده .

ورجحه ابن جرير ، لأن هذه اللفظ هو المتبادر من اللفظ .

قال ابن جرير : وَأَوْلَى هَذِهِ الأَقْوَالِ عِنْدَنَا بِتَأْوِيلِ قَوْلِهِ (التَّنُّورُ) قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ التَّنُّورُ الَّذِي يُخْبَزُ فِيهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ كَلاَمِ الْعَرَبِ، وَكَلاَمُ اللَّهِ لاَ يُوَجَّهُ إِلاَّ إِلَى الأَغْلَبِ الأَشْهَرِ مِنْ مَعَانِيهِ عِنْدَ الْعَرَبِ إِلاَّ أَنْ تَقُومَ حُجَّةٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ بِخِلاَفِ ذَلِكَ فَيُسَلَّمُ لَهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِنَّمَا خَاطَبَهُمْ بِمَا خَاطَبَهُمْ بِهِ لِإِفْهَامِهِمْ مَعْنَى مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ . (التفسير) .

وقيل : المراد به وجه الأرض ، أي : إذا فاض وجه الأرض بالماء ، فاركب لئلا يدركك الغرق .

- **قال ابن كثير** : أما قوله (وَفَارَ التَّنُّورُ) فعن ابن عباس : التنور : وجه الأرض ، أي : صارت الأرض عيونا تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماء ، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.
- وقد أمر تعالى نوحاً أن يحمل معه ثلاثة أشياء:

(**قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**) والمقصود بالزوجين كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى.

- لأن الله تعالى أخبر نوحاً أن الطوفان سيهلك كل موجود على وجه الأرض ، فأمر نوحاً أن يأخذ من كل جنس ذكراً وأنثى ليبقى التناسل في الأرض ، وهذا من رحمة الله .

(**وَأَهْلَكَ**) أي : احمل أهلَك ، والمراد بهم من كان مؤمناً منهم .

(**إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**) أي إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله.

والمراد بمن سبق عليه القول:

زوجته التي جاء ذكرها في سورة التحريم في قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما) .

وابنه الذي أبى أن يركب معه السفينة.

(**وَمَنْ آمَنَ**) واحمل معك من آمن بك من قومك.

(**وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**) مع طول مكثه فيهم .

الفوائد :

١- أن الله وضع علامة لقدوم العذاب على الكافرين .

٢- تعليم الله لنبيه نوح من يحمل معه في السفينة .

٣- رحمة الله بعباده حيث أمر نوحاً أن يحمل معه من كل زوجين اثنين لبقاء التناسل .

٤- نجاة أهل الإيمان .

٥- أن العبرة بالإيمان لا بالأحساب .

٦- أن من كان كافراً فإنه لا تنفعه قرابته لنبي من الأنبياء .

٧- قلة من آمن مع نوح .

٨- عبرة وعظة لكل داعية في عدم حزنه لقلة من آمن معه .

٩- أن الحق والإيمان دائماً هم الأقل .

(وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (٤٢) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)) .

[هود : ٤٠- ٤٤] .

(**وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها**) يقول تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة (ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أي: بسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها.

- **قال الشوكاني** : قوله (وَقالَ ارْكَبُوا فِيها) الْقَائِلُ نُوحٌ، وَقِيلَ: اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، لِقَوْلِهِ: إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .
- **وقال الآلوسي** : قوله تعالى (وَقَالَ) أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى (إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقيل : الضمير لله تعالى ، وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسب إن ربكم الخ ، ولعل هذا القول بعد إدخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج .

- **قال الشنقيطي** : ذكر الله تعالى في هذا الآية الكريمة : أن نبيه نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أمر أصحابه الذين قيل لهم احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلاً : وَقَالَ (بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

وبين في سورة الفلاح : أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين ، ويسألوه أن ينزلهم منزلاً مباركاً ، وذلك في قوله (فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين) .

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله (والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُون) .

ومعنى قوله (مُقْرِنِينَ) أي : مطيقين .

- **قال ابن كثير** : ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى (وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُون) وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة "الزخرف" ، إن شاء الله وبه الثقة.
- **قال الخازن** : وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمراً فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سبباً للنجاح والفلاح في سائر الأمور .

(**إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفور رحيم، كما قال (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وقال (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

(**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ**) أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طَبَّق جميع الأرض، حتى طفت على رءوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا، وقيل: بثمانين ميلا وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته وحراسته وامتنانه .

- **قال الشنقيطي** : ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة : أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم ، أمواجه كالجبال.

وبين جريانها هذا في ذلك الماء الهائل في مواضع آخر.

كقوله (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) .

وقوله (فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) .

- **قال ابن عاشور** : والموج : ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه ، وتشبيهه بالجبال في ضخامته.
- **قال الرازي** : الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة ، والمقصود منه : بيان شدة الهول والفزع.
- **قال ابن الجوزي** : شبهه بالجبال في عِظَمه وارتفاعه .

(**وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ**) لا يختلفون أنه كان كافراً.

وفي اسمه قولان :

أحدهما : كنعان ، وهو قول الأكثرين.

والثاني : اسمه يام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عبيد بن عمير ، وابن إسحاق.

- وهذا كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال ، إذ يتعذر إيقافها بعد جريها لأن الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة.

(**وَكانَ فِي مَعْزِلٍ**) المعزل في اللغة معناه : موضع منقطع عن غيره ، وأصله من العزل ، وهو التنحية والإبعاد.

قيل : في معزل من السفينة ، وقيل : في معزل من دين أبيه.

(**يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ**) تصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة.

- **قال ابن عاشور** : قول نوح عليه السّلام له (اركب معنا) كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير.

قيل : المراد كان في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، وظن نوح عليه السلام أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة، وقيل: إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظن أنه مؤمن، واختاره كثير من المحققين وغيره، وقيل: كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه السلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال وبلوغ السيل الزبي ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان، وقيل: لم يجزم بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على أن ناداه .

(**قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ**) اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق .

- ظن ابن نوح أن ذلك المطر والتفجير على العادة ، فلذلك قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء أي : من وصول الماء إليّ فلا أغرق ، وهذا يدل على عادته في الكفر ، وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر به.

(**قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ**) أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله .

- **قال الشنقيطي** : الصحيح أن الاستثناء هنا منقطع ، أي : ولكن من رحم الله فهو معصوم كالمؤمنين . (ضابط الاستثناء المنقطع : أن يستثني بإلا شيء من غير جنس ما ذكر) .

(**وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ**) أي : بين نوح وابنه ، وذلك أن الموج ارتفع حتى صار مثل الجبال ، فطغى عليه الطوفان .

(**فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**) الهالكين بالغرق .

(**وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي**) يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر .

- **قال ابن عاشور** : والبلع حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم.
- والقائل هو الله ، وإنما حذف للعلم به ، لأنه لا أمر لأحد على السماء والأرض بذلك غير رب العالمين .

(**وَغِيضَ الْماءُ**) أي : شرع في النقص .

(**وَقُضِيَ الْأَمْرُ**) أي: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم دَيّار .

كما قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

(**وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**) أي : السفينة بمن فيها (عَلَى الْجُودِيِّ) قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة .

- **قال ابن الجوزي** : وفي علة استوائها عليه قولان :

أحدهما : أنه لم يغرق ، لأن الجبال تشامخت يومئذ وتطاولت ، وتواضع هو فلم يغرق ، فأرست عليه ، قاله مجاهد.

والثاني : أنه لما قلَّ الماء أَرْسَتْ عليه ، فكان استواؤها عليه دلالة على قلة الماء.

- وقال القرطبي : وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت ، وبقي الجُوديّ لم يتطاول تواضعاً لله ، فاستوت السّفينة عليه : وبقيت عليه أعوادها.

وفي الحديث أن النبيّ ﷺ قال (لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة ".

- وقال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق ؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً ، وتطامن الجوديّ ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق ، ورست السفينة عليه.

وقد قيل : إن الجوديّ اسم لكل جبل .

ويقال : إن الجُوديّ من جبال الجنة ؛ فلهذا استوت عليه.

ويقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجوديّ بنوح، وطور سيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

مسألة : لما تواضع الجوديّ وخضع عزَّ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذَلّ، وهذه سُنّة الله في خلقه، يرفع من تخشّع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تَخشُّعاً ... مِنّا إليكَ فعِزُّها في ذُلِّها .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال (كانت ناقة للنبي ﷺ تُسمَّى العَضْباء؛ وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابيّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِقت العضباء فقال رسول الله ﷺ : "إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه) .

وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال (ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) .

(**وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) أي: هلاكًا وخسارًا لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

قيل : هذا من كلام نوح ، وقيل : من كلام الله .

- **قال الرازي** : فيه وجهان :

الأول : أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد.

والثاني : أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق .

فائدة :

قال بعض العلماء :

(قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ) هذا عقل .

(قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) هذا وحي .

وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ...) هذه نتيجة من قدم عقله على الكتاب والسنة غرق في بحور الأهواء .

الفوائد :

١-مشروعية التسمية في بداية كل عمل ، تشرع التسمية (استحباباً أو وجوباً) في مواضع :

منها : عند الوضوء .

لقوله ﷺ (لا صلاة لمن لا وضوء له) رواه أبو داود .

ومنها : عند الركوب .

قال الله تعالى (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ) .

وفي حديث علي (... وأُتِيَ بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله .... الحديث وفي آخره قال : رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت) رواه أبو داود .

ومنها : عند الذبح والصيد .

لقوله تعالى (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) .

وقال تعالى (وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) .

وعن عدي بن حاتم . قال : قال رسول الله ﷺ (إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله عليه فكل) متفق عليه .

ومنها : عند الأكل .

لحديث عمرو بن سلمة . قال (كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال : يا غلام سم الله ، وكل بيمينك .....) متفق عليه .

ومنها : عند دخول المنزل .

لحديث جابر . أن رسول الله ﷺ قال (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله ، وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء) رواه مسلم .

ومنها : عند الجماع .

لحديث ابن عباس . عن النبي ﷺ أنه قال (لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ...) متفق عليه .

ومنها : عند الخروج من البيت .

لحديث أنس . قال : قال رسول الله ﷺ (إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله ، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له حينئذ: هديت وكفيت ...) رواه أبو داود .

ومنها : في المساء والصباح .

لحديث عثمان . قال : قال رسول الله ﷺ (من قال : بسم الله ، الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح ...) رواه أبو داود .

ومنها : إذا عثر المرء أو عثرت دابته .

لحديث رجل قال (كنت رديف النبي ﷺ فعُثِر بالنبي ﷺ فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب) رواه أبو داود .

ومنها : عند وضع الميت في قبره .

لحديث ابن عمر (أن النبي ﷺ كان إذا وضع الميت في القبر قال : بسم الله ، وعلى سنة رسول الله) رواه أبو داود .

٢- من آيات الله نجاة المؤمنين وهلاك الظالمين .

٣- كل شيء يجري بأمر الله .

٤- من رحمة الله نجاة أهل الإيمان وغرق أهل الكفر والضلال .

٥- شدة الطوفان وارتفاع أمواجه .

٦- من لم يكتب الله له الهداية فلن يهتدي .

٧- حكمة الله : في عدم إيمان ابن نوح .

٨- مصداق : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي .

٩- أن الأنبياء لا يستطيعون هداية أحد إلا من أراد الله هدايته .

١٠- لا ينفع ولا يرد أمر الله إذا جاء شيء .

(**وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)**) .

[هود : ٤٥- ٤٩] .

(**وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ**) هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق .

(**فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي**) أي : وقد وعدتني بنجاة أهلي .

وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) ووعدُك الحق الذي لا يخلف .

(**وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**) فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟

- واكتفى نوح عليه السلام بأن يقول: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي. وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله تعالى وحياء منه سبحانه واعتقاداً منه بأنه سبحانه عليم بما يريده، وخبير بما يجول في نفسه.
- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) أي : أَنَّهُ مِنَ الْأَهْلِ الَّذِينَ وَعَدْتَنِي بِتَنْجِيَتِهِمْ بِقَوْلِكَ: وَأَهْلَكَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ طَلَبَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْجَازَ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: وَأَهْلَكَ وَهُوَ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَتَرَكَ مَا يُفِيدُهُ الِاسْتِثْنَاءُ، وَهُوَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ؟ فَيُجَابُ: بِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّهُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَظُنُّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

- **قال القاسمي:** وإنما قال نوح ذلك- أي: رب إن ابني من أهلي.. ألخ- لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية، والرحمة النسبية، وغفل- لفرط التأسف على ابنه- عن استثنائه تعالى بقوله: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول، فاستعطف ربه بالاسترحام، وعرض بقوله وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده .

يقول المؤرخون : إن أبناء نوح أربعة : أحدهم هذا الذي خاطب الله فيه ، ويسمى : كنعان ، والثلاثة الباقون هم مؤمنون ، ومنهم كان النسل البشري الباقي كما قال تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) .

(**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**) الموعود بنجاتهم .

- **قال ابن كثير** : أي الذين وعدت إنجاءهم ؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال (وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) فكان هذا الولد ممن سَبَق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحاً عليه السلام.
- فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه، لخلوه عن الدليل.
- قول إنه ليس بابنه ، وإنما ابن زنية قول عظيم ، وجرم كبير .
- **قال ابن كثير** : قال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) أي: الذين وعدتك نجاتهم .

وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوج النبي ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) إلى قوله (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

أما قوله تعالى (فخانتاهما) فالمراد الخيانة في الدين ، وذلك أن امرأة نوح كانت تخبر قومها بمن آمن معه فيعذبونهم ، وامرأة لوط كانت توقد الدخان لقومها علامة على أن عند لوط ناساً ليأتوا فيفعلوا بهم الفاحشة .

(**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**) تعليل لانتفاء كونه من أهله.

- **قال البقاعي** : قوله تعالى (إنه ليس من أهلك) أي المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره ، ولهذا علل بقوله (إنه عمل) أي ذو عمل ، ولكنه جعله نفس العمل في قراءة الجماعة مبالغة في ذمه .
- **قال الشوكاني** : قَرَأَ الْجُمْهُورُ: عَمَلٌ، عَلَى لَفْظِ الْمَصْدَرِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَيَعْقُوبُ: عَمِلَ، عَلَى لَفْظِ الْفِعْلِ .

وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّهِ كَأَنَّهُ جُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، وَأَصْلُهُ ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ ثُمَّ حَذَفَ الْمُضَافَ وَجُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، كَذَا قَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ. وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ ظَاهِرٌ، أَيْ: إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ، وَهُوَ كُفْرُهُ وَتَرْكُهُ لِمُتَابَعَةِ أَبِيهِ .

- **ذهب بعض العلماء** : إلى أن هذا الضمير عائد إلى هذا السؤال ، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح ، أي قولك : إن ابني من أهلي لطلب نجاته عمل غير صالح ، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنباً ومعصية.
- **قال الرازي** : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين، لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو: قوله: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .
- **قال القرطبي** : في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين.

(**فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**) أي : لا تطلب مني الشيء الذي لا تعلم أن في طلبك إياه مصلحة ، لأنك إذا سألت شيئاً لا ينبغي وقوعه ، فقد طلبت من الله أ، يفعل ما لا ينبغي ، فكأنك هنا قلت : اللهم أنج كافراً من الكفار .

(**إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**) أي : إني أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها ، ولا يعلمون حقائق الأشياء .

- **قال الشوكاني** : أَيْ أُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، كَقَوْلِهِ: يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَرْفَعُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذِهِ زِيَادَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمَوْعِظَةٌ يَرْفَعُ بِهَا نُوحًا عَنْ مَقَامِ الْجَاهِلِينَ، وَيُعْلِيهِ بِهَا إِلَى مَقَامِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ .

(**قَالَ رَبِّ إِنِّيَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**) أي : أعتصم وأتمنع بك من أن أقع في هذا الخطأ مرة أخرى ، استعاذ بالله من أن يقع في ذلك في المستقبل .

(**وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**) أي : إن لم تستر ما مضى لي من الذنب ، وتغمرني برحمتك التي وسعت كل شيء أكن في عداد الخاسرين .

(**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ**) لما أمر الله الأرض ببلع الماء ، والسماء بالكف عن إنزاله ، واستوت السفينة على الجبل أحب نوح ومن معه النزول ، فأمره الله بالهبوط هو ومن معه .

والمراد هنا : قيل : من السفينة ، وقيل : من الجبل .

- **قال أبو حيان** : قيل : القائل هو الله تعالى ، وقيل : الملائكة تبليغاً عن الله تعالى ، والظاهر الأول لقوله : منا.

(**بِسَلاَمٍ مِّنَّا**) أي : مصحوباً بسلام ، أي : بتحية وسلامة .

وهذا من إكرام الله لنبيه نوح ، حيث كان عبداً شكوراً .

- فضائل نوح:

أولاً: ثناء الله عليه.

قال تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً).

ثانياً: أول رسول للبشر.

لحديث أبي هريرة –حديث الشفاعة– قال ﷺ (... فيأتون نوحاً فيقولون أنت أول رسول إلى البشر، وسماك الله عبداً شكوراً).

ثالثاً: أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب.

رابعاً: استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب.

قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

(**وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**) أي : خيرات كثيرة .

- **قال الخازن** : والبركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، وقيل : المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم .

(**وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ**) واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال : منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات ، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم ، فلهذا السبب جعلهم أمماً .

ومنهم من قال : بل المراد ممن معك نسلاً وتولداً قالوا : ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى (وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

ومنهم من قال : المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك .

(**وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي : أن الأمم التي تكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين: قسم منهم له منا السلام، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح.

وقسم آخر سنمتعه في الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا، وعصيانه لرسلنا.

فعلى كل عاقل أن يجتهد في أن يكون من القسم الأول، وأن يتجنب القسم الثاني.

- **قال الخازن** : قوله تعالى (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم ..) هذا ابتداء كلام ، أي : وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم .

(**تِلْكَ**) الإشارة إلى ما مضى من قصص نوح ، من دعوته قومه إلى عبادة الله .

(**مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ**) أي : تلك القصص التي أخبرناك بها من الأمور التي هي غائبة عن الناس .

وفي هذا أعظم معجزة للنبي ﷺ ، حيث إنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وإذا به يخبر عن غرائب التاريخ التي مضى عليها آلاف السنين ، فليست إلا بوحي من الله .

(**مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا**) أي : هذه القصة وأمثالها ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنت يا محمد، وما كان يعلمها قَوْمُكَ أيضا، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة، الخالية من الأساطير والأكاذيب ، مِنْ قَبْلِ هذا الوقت الذي أوحيناها إليك فيه.

(**فَاصْبِرْ**) وما دام الأمر كذلك فَاصْبِرْ صبراً جميلاً على تبليغ رسالتك، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل.

وفي هذا أن أعظم ما يعين على الصبر قراءة سير من تقدم من الأنبياء والعظماء والعلماء العاملين وكيف صبروا وضحوا .

- **قال الرازي** : وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه.
- وإنما أمره بالصبر لأمور:

أولاً: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

ثانياً: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

ثالثاً: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

رابعاً: وليكون قدوة لغيره.

(**إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**) تعليل للأمر بالصبر.

أي : إن العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة، للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضى الله تعالى، وليست لغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى.

الفوائد :

١- أهمية عقيدة الولاء والبراء في الإسلام .

قال بعضهم : لو كان الولاء للأرض ما ترك النبي مكة – ولو كان للقبيلة ما قاتل قريشاً – ولو كان للعائلة ما تبرأ من أبي لهب ، ولكنها العقيدة أغلى من التراب والدم .

٢- أن ابن نوح كان كافراً ، فلم يستحق النجاة .

٣- أن العبرة بالدين بالإيمان والعمل لا بالأحساب والأنساب .

٤-أن الأنبياء بشر كغيرهم ، لا يستطيعون هداية أحد إلا بأذن الله .

٥- الرد على من يرفع نبياً من الأنبياء فوق منزلته ، فنوح لم يستطع هداية ابنه ، ونبينا ﷺ لم يستطع هداية عمه .

٦- حكمة الله في عدم هداية ابن نوح .

٧- أن كل أحد – حتى الأنبياء – بحاجة إلى رحمة الله ومغفرته .

٨- ثناء الله على نوح .

٩- معجزة ظاهرة للنبي ﷺ ، حيث أخبر بهذا الأنباء التي لا يعلمها إلا الله .

١٠- أمر النبي ﷺ بالصبر .

١١- أن الصبر من أسباب النصر والتمكين والرفعة ، حيث صبر نوح فنصره الله ومكنه .

١٢- علينا الاقتداء بالأنبياء في صبرهم وجهادهم وتحملهم .

١٣- أن العاقبة في الدنيا والآخرة لمن اتقى الله .

١٢ رمضان ١٤٣٩هـ .